الحضارة، التغيير الحضاري.....شرح مفاهيم

أ. سليمان ثابت

إمام مسجد النور بالشمرة

باتنة

الكلمات الأساسية (المفتاحية): الحضارة – التغيير – الحضاري

مقدمة:

مصطلحا الحضارة والتغيير الحضاري مصطلحان مترابطان يبعضهما ارتباطا وثيقا باعتبار اشتقاق الحضاري من الحضارة، وانطلاقا من عنوان المداخلة فالحال يقتضي تناول هذين المصطلحين وشرح هاتين المفردتين شرحا يجلي معانيهما ويكشف دلالاتهما تبعا لما ينبني على هذه المعاني والدلالات حين ننقل من مجال التنظير إلى مجال التطبيق الذي هو المقصود الفعلي والرئيسي من تناول هذا الموضوع بالذات.

ويمكن تناول هذا الموضوع وحل بعض إشكالاته من خلال هذه العناصر:

أولا:

ا– مفهوم الحضارة في الفكر الإسلامي

ب– مفهوم الحضارة في الفكر الديني غير الإسلامي

ج– مفهوم الحضارة في الفكر الوضعي غير الديني

ثانيا:

أ- مفهوم التغيير الحضاري في الفكر الإسلامي

ب- مفهوم التغيير الحضاري في الفكر الديني غير الإسلامي

ج- مفهوم التغيير الحضاري في الفكر الوضعي غير الديني

خلاصة:

أولا:

أ) مفهوم الحضارة في الفكر الإسلا مي:

يجب أولا ملاحظة أن الحضارة مفهوم إنساني عالمي، غير أن المفاهيم الخاصة والمعتقدات والثقافات هي التي تميز حضارة عن أخرى،وتجعل لكل حضارة خصوصيتها،وهو ما يسمى عند بعض المفكرين بالشخصية الحضارية لكل أمة.

وعليه إذا أردنا أن نعطي مفهوما للحضارة في الفكر العربي الإسلامي فسنجد كما العادة أن لها تعريفين:لغوي واصطلاحي.

01- المفهوم اللغوي للحضارة:

في العربية، لفظة الحضارة تقرأ بكسر الحاء وفتحها وتعني الإقامة في الحضر، وأن مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي في الحضر (1) وهي مشتقة من الفعل حضر، وضد ه غابَ والحاضرة والحِضارة خلاف البادية.(2) والحضور نقيض المغيب والغيبة.

وحَضَرَ يَحْضُرُ حُضوراً وحضارة. ..والحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي، وقد ورد في السنة في معرض البيوع المنهي عنها قول النبي –صلى الله عليه وسلم- في الحديث: "**لا يبيع حاضر لبادٍ** ."رواه مسلم وغيره عن جابر بن عبد الله- رصي الله عنه- والحاضر: المقيم في المدن والقرى ويطلق عليه:حضري، والبادي: المقيم بالبادية وأطلق عليه:بدوي، فيقال:فلان حضري وفلان بدوي. والحِضارة بالكسر: الإقامة في الحضر. ونقل عن الأصمعي قول : الحَضارة، بالفتح. والحاضرة والحاضر: الحي العظيم أو القوم.(3)

فدلالة لفظة الحضارة في اللغة العربية قاموسيا ترتبط بالحضر، والعمران، أي أن المصطلح ناحية يحمل المعنى الاجتماعي، حين يعتبر الحضارة علامة على الحضور والإقامة والاستقرار، وهذه الألفاظ كلها تحمل معاني اجتماعية، فإذا حل الناس ببقعة وسكنوها واستقروا بها نشأت بينهم صلات اجتماعية أكثر، وارتبطت مصالحهم، ونشأت بينهم طرق شتى للتعاون، ومن ثم اتجهوا البناء والتعمير فشيدوا المدن وأبدعوا أنظمة تسوس حياتهم وتنظمها.

فالحضارة في دلالتها اللغوية تتمركز حول الجانب الاجتماعي، وكأن اللغة تشير إلى أن الحضارة مفهوم اجتماعي في أوله، ولا تنشأ إلا حيث توجد علاقات اجتماعية متبادلة بين الناس تبرز فيها معاني التعاون والانتظام في إطار جغرافي محدد يشكل في النهاية المدينة.

ولعل هذه المعاني هي التي جعلت النبي –صلى الله عليه **وسلم-** يطلق على (**يثرب**) أول مقدمه إليها مهاجرا اسم (**المدينة**)، نظرا لما يتضمنه لفظ المدينة من دلالة على قيم اجتماعية وحضارية لها أثرها العميق في النفس البشرية وهو الأثر الذي جعله – صلى الله عليه وسلم- ينهى المهاجر عن التعرب أي: يرحل المتمدن عن المدينة إلى البادية مرة أخرى.

02- المفهوم الاصطلاحي للحضارة:

مفهوم الحضارة من الناحية الاصطلاحية من الألفاظ المعقدة المثيرة للجدل والقابلة للتأويل وهو ما يجعل التعريف الاصطلاحي للحضارة يتعدد تبعا لتعدد اتجاهات المفكرين والفلاسفة الذين تناولوه 'فكل يعرف الحضارة تبعا لاتجاهه الفكري وخلفيته الثقافية وحتى تخصصه العلمي.

وعند البحث في تعريف الحضارة عند المفكرين المسلمين نجد فيهم القدامى والمحدثين،فمن القدامى نختار أب علم الاجتماع وشيخ المؤرخين العلامة عبد الرحمن بن خلدون حيث:

02-01- يعرف ابن خلدون الحضارة بقوله: (الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير... فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضًا كذلك لأنه غاية لا مزيد وراءها، وأن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها.)(4).

ويبدو أن الشيخ وهو يشير إلى مفهوم الحضارة حسبه يقصد بالذات المرحلة الأخيرة التي تمر بها الحضارات أعني مرحلة الأفول عندما تتفكك العصبية –كما يسميها ابن خلدون- وتضمحل قوة الرابطة التي تجمع الناس على بناء المجتمع، فينحدر أهل تلك الحضارة إلى حالة الترف المهلكة، وتقل أخلاق التعاون والبناء، وتظهر أخلاق الخلاف والفتور.فهو يعد الحضارة آخر مراحل المدنية والرفاهية، ولذلك يعتبرها بداية للانحدار وهي من ثم معاناة فنون الملاذ والفتن في الترف واستجادة أحواله.

ونجد عند ابن خلدون تعريفاً آخر للحضارة تحت مسمى **"سر الله في ظهور العلم والصنائع"**حيث يقول (إن الصنائع من منتحل الحَضَرِ وإن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية.. والحضَرُ لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف)(5)

ويعلل ابن خلدون ما ذهب إليه برسوخ الحضارة في العجم، ويعني الفرس الذين احتواهم الإسلام، فيقول: (لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس.. وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة وحاميتها وأولي سياستها)(6). **ويقرر ابن خلدون** أن استمرار العلوم والصنائع والتطور العمراني – الحضارة- إنما هو نتيجة لاستمرار عمل قانون الحضارة في تلك الأمصار وليس سببًا في استمرارها، حيث يقول: (فلم يزل ذلك في الأمصار ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر، فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم) (7)

فالحضارة في النهاية عند ابن خلدون **سر الله في وجود العمران والعلم،** وإذا فقدت شروطها فإنها تنتقل بفعل سنة وقانون التداول الحضاري إلى بقعة أخرى تتوفر فيها شروط نمائها وازدهارها.

وإذا وصلنا إلى المحدثين من المفكرين المسلمين الذين اهتموا بشأن الحضارة وحاولوا صياغة تعريف لها نجد في مقدمة هؤلاء الجهابذة: مالك بن نبي، سيد قطب، المودودي، محمد إقبال، ويوسف القرضاوي، جودت سعيد.....الخ، **حيث:**

02-02- يعرف مالك بن نبي الحضارة بأنها: " مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد في كل طور من أطوار حياته – منذ الطفولة إلى الشيخوخة – المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه" (8) أو هي: " إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ " (9)

فالحضارة عند مالك بن نبي هي الحاضنة للتقدم، والمحيط المناسب لإشاعة ثقافة العلم، حين تعطي الفكرة المبررات الدافعة لليد والعقل للاستفادة من الوقت.

وقد صاغ مالك بن نبي العوامل التي تشكل الحضارة بالمعادلة التالية:

(ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت)*، ولكن هذه المعادلة لا تعطي ثمارها إلا بمفاعل أو مركب يدمج هذه العناصر ويعطيها غاية، وهذا المفاعل هو الدين أو ما أسماه الفكرة الدينية أو العنصر الأخلاقي، وسواء كان هذا الدين سماوياً حقاً كالإسلام أو عقيدة ومبدأ يبلغ عند أصحابه مبلغ الدين، وقد ضرب بن نبي مثالا للإقلاع الحضاري – انطلاقا من الفكرة ولو كانت غير دينية – بنهضة اليابان والصين والإتحاد السوفيتي الآفل نجمه

02-03- **يعرف سيد قطب الحضارة** في كتابه معالم على الطريق فيقول: ""الإسلام هو الحضارة".(10) **ويضيف سيد لهذا التعريف الأسس** التي تقوم عليها الحضارة بأنها: "العبودية لله وحده" والتجمع على أصول العقيدة، واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة، وسيادة القيم الإنسانية وحرمة الأسرة، والخلافة في الأرض على عهد الله وشروطه وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شئون هذه الخلافة"(11).

وكأن سيد قطب يريد أن يقول بأن الحضارة الإسلامية هي: ما يقدمه الإسلام للمجتمع البشرى من قيم ومبادئ، وقواعد ترفع من شأنه، وتمكنه من التقدم في الجانب المادي وتيسر سبل الحياة للإنسان، ويتم كل ذلك في ضوء المبادئ الإسلامية، ولا يحيد عنها.

02-04- **ويرى أبو الأعلى المودودي أن الحضارة:** "هي مجموعة المناهج والقوانين التي قررها الله سبحانه وتعالى لكل هذه الشئون والشعب المختلفة لحياة الإنسان" (12)

02-5- **ويقرر يوسف القرضاوي أن:**(لكل حضارة جسم وروح كالإنسان تماما فجسم الحضارة يتمثل في منجزاتها المادية من العمارات والمصانع والآلات وكل ما ينبئ عن رفاهية العيش ومتاع الحياة الدنيا وزينتها.

أما روح الحضارة فهو مجموعة العقائد والمفاهيم والقيم والآداب والتقاليد التي تتجسد في سلوك الأفراد والجماعات وعلاقاتهم بعضهم ببعض ونظرتهم إلى الدين والحياة، والكون والإنسان، والفرد والمجتمع.) (13)

02-6-**ويعرفها حسن رمضان فحلة:** بأنها إنتاج الإنسان المدني الاجتماعي بما يحمله من قيم روحية واجتماعية يستمدها من المصادر التشريعية التي يؤمن بها، ويلتزم بتطبيق أحكامها، فتقوم بتربيته بما فيها من مبادئ وأحكام، ومثل وقيم سامية من أجل غرض نبيل، وقيم عليا، وأهداف مثلى. (14)

* مالك بن نبي،شروط النهضة،دار الفكر،الجزائر،ط1987،4،ص49.

والملاحظ أن معنى الحضارة في الفكر الإسلامي يقرب أو يترادف مع معنى العمران الذي أطلقه العلامة ابن خلدون.ومعلوم لدى علماء الاجتماع والدارسين للفكر الخلدوني أن مصطلح عمران يراد به الحضارة.

(وحضارة الإسلام حضارة إنسانية جاءت لإسعاد الإنسان وأمنه وسلامه. حضارة نفس تحررت من الظلم والأثرة، وتآخت بالحب والإيثار، وتراحمت بالعطف والحنان، وسعدت بالأمن والسلام)[*].

فالمسلم إنسان حضاري، الإنسانية شعاره، سمته الشكر والتقدير والطاعة والتدبير، يصلح ولا يفسد، وينفع ولا يضر يهدي ويرشد، ولا يغوي ولا يغر،لأن الذي يعلمه ويربيه، ويضع له قانون التعامل مع الكون كله إنما هو الإسلام، لا الأهواء ولا الشهوات، ولا أي مخلوق يريد أن يتأله في الأرض ويتحكم في رقاب بني البشر وهو مثلهم يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون.

ب) مفهوم الحضارة في الفكر الغربي:

ب–01– مفهوم الحضارة لغويا في اللغات الغربية:

((أما مصطلح "الحضارة" في اللغات الأوربية، واللغة الإنجليزية بخاصة، فمشتقة من اللاتينية، فلفظ "Civilization"لغويًا يرجع إلى الجذر "civites"بمعنى مدينة، و "Civis"بمعنى ساكن المدينة، أو "civilis" بمعنى مدني أو ما يتعلق بساكن المدينة،كما أنها تقرن أحيانا بمصطلح "Culture" التي في معناها اللاتيني تفيد الإنماء والحرث، واستمر مفهومها في حراثة الأرض وتنميتها، إلى نهاية القرن الثامن عشر، حيث كما يذكر معجم أكسفورد أنها اكتسبت معنى يشير إلى المكاسب العقلية والأدبية والذوقية، وتقابل في العربية مصطلح ثقافة فالمصطلح نفسه لم يأخذ معناه المعروف لدينا اليوم عن الحضارة في اللغات الأوربية، إلا مع القرن الثامن عشر.، باعتبار ما اقترن به من مصطلحات دلالية أخرى، وأقرب المعاني اللغوية المستعملة اليوم أن الحضارة: "**مرحلة متقدمة من النمو الفكري والثقافي والمادي في المجتمع الإنساني**ً.،أو هي: "مرحلة متقدمة من التقدم الاجتماعي الإنساني، أو هي ثقافة وطريقة حياة شعب أو أمة أو فترة من مراحل التطور في مجتمع منظم.

فمصطلح الحضارة في اللغات الأوربية يتضمن معنى المدينة، والاستقرار، والتنظيم الذي تقتضيه حياة المدينة،كما في العربية، وكأن هناك تشابهًا في المعنيين اللغويين في كل من العربية واللاتينية، باعتبار أن الإنسان اجتماعي بطبعه —كما يقرر ابن خلدون– أي أن النزوع إلى التجمع والتنظيم والانتظام فطرة إنسانية تحكم السلوك الإنساني في إطاره الجماعي، وأن التحضر مطلب إنساني متصل بالسعي الإنساني في مختلف العصور)) (15).

ب–02– مفهوم الحضارة في اصطلاح الفكر الغربي:

((الحضارة في الفكر الغربي لها عدة تعريفات. ذكر بعضا منها طه جابر العلواني في كتابه: ً**الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر**ً نوردها فيما يلي:

[*] توفيق الواعي،معالم على الطريق،دار ابن حزم،بيروت،ط1،1995،ص52

أ – يعرفها(ول ديوارانت) المؤرخ الأمريكي صاحب موسوعة "قصة الحضارة" بأنها: "هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي وهي تتألف من أربعة عناصر: موارد اقتصادية، نظم سياسية، تقاليد خلقية، متابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ من حيث ينتهي الاضطراب والقلق".

ب – يعرفها "توينبي" في كتابه "دراسة التاريخ" أنها: " حصيلة عمل الإنسان في الحقل الاجتماعي والمناقبي وهي حركة صاعدة وليست وقائع ثابتة جامدة، إنها رحلة حياتيه مستمرة لا تقف عند ميناء ما".)) (16)

ومما سبق يمكن أن نستخلص أن الحضارة كل مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني المقابل لمرحلة الهمجية والتوحش وخشونة الطبع، وتتميز بضروب من التقدم والرقي في المجال العلمي والثقافي والأدبي والاجتماعي والسياسي.

فهي إذن نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي والفكري، وتمكنه من استغلال موارده أحسن استغلال، وتؤدي به إلى تقوية سلطة دولته، وتنمية علومه وفنونه وآدابه واحترام عاداته وتقاليده وماضيه.

والحضارة علامة فارقة في تمييز الأمم عن بعضها فهي في هذا السياق:

كل ما يميز أمة عن أمة من حيث العادات والتقاليد وأسلوب المعيشة والملابس والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية،و مقدرة الإنسان في كل حضارة على الإبداع في الفنون والآداب والعلوم، ويعرفنا عنها كل من: طرق العيش والظروف الطبيعية، والوضع الاقتصادي، العلاقات الاجتماعية بين فئات المجتمع.ولعل هذا المفهوم هو ما يؤدي–حين يساء فهمه– إلى ظاهرة الإستعلاء الحضاري من قبل الغالب، والتبعية الحضارية من قبل المغلوب، وهو ما أشار إليه العلامة ابن خلدون في مقدمته في فصل: المغلوب دوما مولع بتقليد الغالب.

والحضارة على هذا الأساس لا يمكن تصور قيامها إلا في رحاب المدن، لذلك فالحضارة لا تظهر أبدا في البادية، لأن البدو (الأعراب بمصطلح القرآن) بطبعهم هادمون للحضارة مخربون للعمران حسب ابن خلدون.والاستقراء للتاريخ واستنطاق آثار الأمم والحضارات يثبت صحة هذا المذهب،إذ ما من حضارة قامت،ثم بادت إلا في كنف حاضرة من الحواضر ومدينة من المدائن،لا في بادية من البوادي ولا مرابع قبيلة من القبائل.وهو ما يمكن أن يشكل قانونا عاما يحكم قيام الحضارات وازدهارها.

ثانيا:مفهوم التغيير الحضاري

أ– مفهوم التغيير الحضاري في الفكر الإسلامي

ويقصد بمفهوم التغيير في الثقافة الإسلامية:ذلكم التحول العميق الناتج عن تفاعل مطرد بين الحضارية كخاصية والمنهج كأداة، ويستهدف القيم والإنسان قبل البنى والوظائف، قال تعالى: "**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** " الرعد الآية 11 .

وقال أيضا: "**ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**" (الأنفال الآية 53).

وقبل أن نشرع في في الحديث عن معالم المنهج الحضاري في التغيير–كما تبلور في الفكر الإسلامي–نود أن نؤكد بداية على العلاقة التناسبية بين الأزمة الحضارية ومنهج التغيير،ففهمنا للأزمة التي تعيشها الأمة فهما موضوعيا سليما،وتشخيصها تشخيصا علميا دقيقا، يقودنا بالضرورة إلى اتباع المنهج الصحيح المناسب لعلاجها،وإخراجها من

الوهدة التي سقطت فيها ردحا من الزمن،ومن ثم انتشالها من مستنقع التخلف الآسن،والأخذ بيدها لتعود مرة أخرى إلى مضمار المنافسة الحضارية وتتربع على مقدمة كوكبة المتنافسين.كيف لا؟وإن فعلت تكن خير أمة أخرجت للناس.

إن الأزمة التي تعيشها الأمة اليوم هي أزمة حضارية متعددة المظاهر لبها يكمن في الاختلال الذي أصاب ًعالمها الثقافي ً مما نتج عنه ما نراه باديا في الواقع من أعراض مزمنة يحسبها البعض أمراضا ويبدد جهودا مضنية في علاجها دون جدوى،وليست في الواقع إلا أعراضا وهي –كما تبدو–:

تخلخل في شبكة العلا قات الاجتماعية، فوضى فكرية، تذبذب وفتور في التوثب الروحي،تمزق في الوحدة السياسية، إمعية وتبعية حضارية وغثائية مخزية، أستئنافية في العمل ألتغييري، تأزم حاد في الحس الحضاري...الخ، وهو ما أدى إلى ضعف وقصور في الفعالية الحضارية للأمة.(17)

ومادامت الأزمة حضارية وجب أن يكون التغيير حضاريا لا غير، فخلا صنا لا يكون بالثورات المسلحة ولا بالثورات الشعبية لأن التغيير الذي يحدث بها يكون تغييرا ظرفيا ومحدودا ولا يستوعب كل متغيرات الأزمة،أو قل:هو بمثابة ولادة قيصرية تمت في غير وقتها الطبيعي،وشهرها المعتاد، ومنه: ً**إنه لا خلاص لنا إلا بالعلم** (18) يقصد التغيير المبني على العلم، المراعي للقوانين التي تحكمه.

(**من المعلوم بداهة أنه كلما كان التغيير المطلوب** أكبر، وكلما كانت الغاية المنشودة من التغيير أسمى،كلما كانت الحاجة إلى كون التغيير أثبت وأطول عمرا أكبر.

ومن هنا ولأن التغيير الذي نسعى إليه إنما هو تغيير الأمة والارتقاء بها من الحضيض إلى قمة السمو،كان لا بد من دراسة الكيفية التي يتم بها هذا التغيير،دراسة جادة وعميقة ومتأنيةفي آن،وذلك حذرا من الوقوع في منزلقات التيه والضلال، والإخفاق والفشل.)(19)

بعض معالم منهج التغيير الحضاري: (20)

1- منهج سلمي ومدني:

فالسلمية والمدنية ورفض التطرف والتقيد بالمشروعية والمقتضيات القانونية لكل بلاد من صميم مستلزمات المنهج الحضاري الذي يرفض العنف والإكراه بمختلف أشكالهما وألوانهماكما يرفض إثارة الفتن مواطني المجتمع الواحد ويدعو جميع مكونات المجتمع من حكام ومحكومين إلى حفظ الأمن والطمأنينة واجتناب أسباب الفتنة والصراع.

2- منهج متدرج وتراكمي:

والمعنى أن التغيير الحضاري يأتي وفق خطوات متتابعة ينبني لاحقها على سابقها ولا يكون التغيير طفرة يتم بين عشية وضحاها بلا مقدمات،فالتغيير الذي هذه صفته سمه ما شئت إلا أن تسمه حضاريا فلا،

فالتدرج سنة كونية، سنة اجتماعية وتاريخية، فتقدم الأمم وقيام الحضارات خاضع لسنة التدرج، وانتصار الدعوات خاضع لسنة التدرج: "**لكل أجل كتاب**" (الرعد/39)

وفقه السنن –كما هو معلوم– من أنواع الفقه التي لا لابد منها لنجاح أي تغيير.

وعليه فإن أي تغيير ناجح بحاجة إلى هذا التدرج، لأن الاستعجال والقفز على طبائع الأشياء،وحرق المراحل، والتصرف تبعا للاستفزازات وردود الفعل يفضي غالبا إلى كوارث تعود أضرارها على المشروع،وترجع به إلى الوراء

خطوات. **لكن في مقابل** ذلك كله فإن التدرج ينبغي أن ينضبط بمصلحة المشروع ولا يسقط في التباطؤ الذي يؤخره دون مبررات.

أما التراكمية فنعني بها البناء على ما سبق من جهود وتجارب، والبعد عن الاستئنافية التي تبدد كثيرا من الجهد في االإجترار والتكرار، وتزيد من المديونية الحضارية للأمة.

3- منهج إصلاحي إقناعي:

التغيير –كما نعلم–كلمة قرآنية أصيلة وتعني إزالة ووضع وهو ما يوحي بأن ما فسد يمكن إصلاحه، مع أن التغيير بعد التشكيل صعب.

ويعتمد منهج التغيير الحضاري على ترقيع ما يمكن ترقيعه في الوسط الذي تستهدفه عملية التغيير، محافظا على ما تحقق من مكاسب إنسانية في الواقع،مبتعدا عن عملية الهدم الكلي لما هو موجود تحت أي حجة كانت، فالديمقراطية وحقوق الإنسان مثلا يعتبران مكسباً عظيماً للبشرية تبلور من خلال القيم الدينية الخالدة ومن خلال كفاح الشعوب وزعمائها المصلحين ومفكريها المستنيرين. ومنهج التغيير الحضاري يجب أن يلتزم بما تقرر منها في الإعلانات والمواثيق الدولية باستثناء ما تعارض منها تعارضا بينا مع أحكام ديننا وشريعتنا.

ومن مقتضياته قيامه على الحرية ونقصد بالحرية حرية الإنسان في اتخاذ القرار بما فيها القرار المتعلق بمصيره الأخروي وهي حرية تترتب عنها مسؤولية يتحمل الإنسان فيها عواقب اختياره وتصرفه. **"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويومن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم"** (البقرة/255).

ولاحق لأحد أن يسلب من أحد ما منحه الله تعالى لا باسم الدين ولا باسم غيره قال تعالى: "**قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**"(الكهف/29) وقال" :**فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر**" (الغاشية/21- 22) وقال أيضا: **"وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد"** (ق/45)

فالاقتناع القائم على الحجة والدليل والرضي المؤسس على العلم والمعرفة يؤديان إلى الاستجابة الذاتية. بيد أن الشخص الذي يختار بحريته ورضاه الانخراط في مشروع التغيير الحضاري والعمل في إطاره يكون ملزما بما التزم به، مطالبا بالوفاء بمقتضيات التزامه. وليس في هذا نقص أو انتقاص لحريته، بل هي ممارسة منه لحريته وإعمال لها وتحمل منه للمسؤولية التي تلازم الحرية.

5– منهج يزاوج بين الأصالة والمعاصرة:

وفي هذا الإطار ينبغي التمييز بين الإستمداد من منهج السلف والاتصال المباشر بنصوص الوحي دون وساطات إلا على سبيل الإستأناس وبين السعي لارتياد آفاق التجديد والاجتهاد، فالتدين في الفهم الصحيح هو كسب خاص بكل جيل بل بكل إنسان قال تعالى **"تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ"** البقرة .134/ومن ثم يكون الإقتداء بالسلف الصالح هو إعمال لمنهجهم في التعامل مع الكتاب والسنة لا إلى استنساخ تجربتهم التاريخية، وفي الاجتهاد واستنباط أحكام جديدة فيما لا نص فيه على أساس مقاصد الشريعة والضوابط العلمية والقواعد المنهجية المعتمدة.

وانطلاقا من الإيمان بالاجتهاد والانخراط في المعاصرة (الحداثة بمعناها الإيجابي البناء)، يدعو منهج التغيير الحضاري إلى الانفتاح الخلاق على الثقافات واللغات والتجارب الإنسانية، وتلك نتيجة طبيعية لعالمية الرسالة الإسلامية ودعوة الإسلام إلى الانفتاح على الأمم الأخرى والتعارف معها مصداقا لقوله تعالى:"**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير**" الحجرات/13.

مرتكزات منهج التغيير الحضاري:

منهج التغيير الحضاري يفتقر إلى مرتكزات يستند عليها تقيه السقوط حتى يصل في أمان إلى عملية التغيير التي ينشدها وهي:

1- **الانضباط بالقواعد الشرعية في عملية التغيير**

2- **تقديم الثقافي والإنساني على المادي في عملية التغيير**

3- **اعتماد مبدأ المشاركة والتدافع السلمي أثناء التغيير**

4- **مراعاة المديونية الحضارية ومؤامرات المتربصين بالمشروع**

أن عملية التغيير إذن تنطلق من أسس فكرية أولا إذ لا تتأتى إلا بعد دراسة موضوعية تشمل اطلاعا واسعا وفقها للعالم وتغيراته تنتهي إلى إيجاد أجوبة دقيقة وعملية على الأسئلة والمشاكل التي تحير عقل المسلم كمشكلة الانفصال الذي يعيشه المسلم بين سلوكه وعقيدته وموانع إعطاء العقيدة ثمراتها.كما يذهب إليه جودت سعيد وهو المنهج نفسه الذي اتبعه محمد إقبال ووأبو الأعلى المودودي وسيد قطب في دراساتهم مما جعلها تحظى بالتقدير والاحترام من قبل المهتمين بشأن التغيير في العالم الإسلامي، بل وفي العالم كله.

آلية وميكانيزم التغيير:

تغيير الواقع في في نظرنا وكما يؤكد الخبراء والعالمون بأسرار النفوس لا يمكن أن يتم إلا بتغيير ما بالأنفس أن كثيرا مما في أنفسنا يعطي حق البقاء والاستمرار لواقعنا. والقرآن الكريم يفسر ما يحل بالإنسان بالظلم الذي ينزله الإنسان بنفسه(**وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم)الشورى28**. من هذا المنطلق يمكن لنا أن نعتبر أن المشاكل خاضعة لقوانين ومسببات يمكننا السيطرة عليها وتسخيرها عكس ما إذا كنا نرى أن هذه المشاكل لا يوجد لها تفسير وغامضة الأسباب فنكون بذلك ننتظر المهدي وأشراط الساعة كي يأتيا بالحل.

ومثال ذلك المريض الذي يستسلم ولا يبحث عن أسباب مرضه وعن طبيب أن يشخص له الأسباب التي هي وراء حالته تلك ومن ثم يصف له العلاج المناسب. كما شبه الرسول صلى الله عليه وسلم وحدة الأمة تارة بالبنيان المرصوص وتارة أخرى بأصحاب السفينة، سعيا منه –عليه السلام –الى تقريب المعنى للأذهان فما أصاب هذا يصيب ذاك كما يقول أهل القياس.

فعندما نعلم أن مشاكلنا خاضعة لسنن يمكن كشفها سوف يكون سلوكنا ايجابيا في الإقبال على العمل بجد لأننا واثقين أنه بإمكاننا حلها. ولا يمكن أبدا التغيير بالعنف، فلابد من الإقناع لأن قانون النفس الإنسانية يقوم على الاقتناع لا الإكراه أو العنف.(**21**)

ب- مفهوم التغيير الحضاري في الفكر الغربي:

يعني التغيير الحضاري في عمومه عند مفكري الغرب التبدل في عناصر الحضارة المادية والمعنوية،أي التبدل في المعرفة والأفكار والفن والمذاهب الدينية والأخلاقية والآلات والمكائن والتكنولوجيا. (22)

ج- مفهوم التغيير الحضاري في الفكر الوضعي:

يرى **ليسلي وايت** –عالم أنثروبولوجيا أمريكي مشهور بدعوته الى نظريات التطور الثقافي، كان رئيس جمعية الأنثروبولوجيا الأميركية (1964)- أنَّ التغيير الحضاري يتم من خلال ثلاث زوايا:

-الزاوية التكنولوجية.

-الزاوية الاجتماعية.

-الزاوية الفكرية.

لكنه يعتقد أنَّ التكنولوجيا عاملاً حاسماً بالنسبة للزاويتين الثانية والثالثة وهو المحفز للتغيير بشكل عام.

أمَّا وليم أوجبرن (W. Ogburn)عالم اجتماع أمريكي صاحب كتاب:(التغيُّر الاجتماعي Social Change)

فيرى أنَّ التغيير الحضاري يمر بمراحل ثلاث وهي:

1- الاختراع والإبداع:

وهذان يشيران إلى القابلية الحضارية على خلق شيء جديد وهو إمَّا أنْ يكون ذاتياً صادراً عن تفكير الإنسان وقابليته أو يكون صادراً من آخرين أو قابليات أجنبية وبنيت عليها أو أضيفت عليها إبداعات خلاقة. مثال ذلك الإبداع التكنولوجي عند الإنسان في اختراعاته للعجلة الدائرة، ثم القارب، وإبداعاً غير مبني على إبداعات سابقة بينما آلات النسيج وصناعة الورق والطباعة والكتابة كانت مبنية على إبداعات سابقة.

2- التراكم:

الذي يشير إلى اكتساب الإبداعات السابقة وإضافة إبداعات جديدة أخرى إليها.

3- الانتشار:

أي أنَّ نمو الحضارة وتغييرها لا يأتي فقط من خلال الإبداعات والاختراعات بل من خلال الانتشار أيضاً الذي يكون بواسطة وسائل الاتصال والتجارة والتزاوج والاتفاقيات الثقافية بين الدول والهيئات الدبلوماسية والمهاجرين والملاحين حيث يقومون بنشر الإبداعات الجديدة بشكل مباشر أو غير مباشر.

ويضيف رجال الدين في الغرب إلى معاني التغيير هذه وشروطه تعاليم دينهم وتوجيهاته، ويعتبرونها شرطا أساسيا يجب أن يواكب أي عملية تغيير حضارية حتى تكون ناجحة وتؤتي أكلها، ويعتبرون أن تجريد أي مشروع للتغيير من القيم الدينية،يؤدي إلى الفشل وعدم النجاح.

الخلاصة:

يمكننا في نهاية هذا البحث المتواضع أن نصل إلى خلاصة نقول فيها:

يجب أولا ملاحظة أن الحضارة مفهوم إنساني عالمي، غير أن المفاهيم الخاصة والمعتقدات والثقافات هي التي تميز حضارة عن أخرى،وتجعل لكل حضارة خصوصيتها،وهو ما يسمى عند بعض المفكرين بالشخصية الحضارية لكل أمة.

وعليه إذا أردنا أن نعطي مفهوما للحضارة في الفكر العربي الإسلامي فسنجد كما العادة أن لها تعريفين:لغوي واصطلاحي.

وخلاصة دلالة لفظ الحضارة في عرف اللغة العربية ترتبط بالحضر، والعمران، أي أن المصطلح من ناحية اللغة العربية يحمل المعنى الاجتماعي، وذلك عند اعتبار الحضارة علامة على الحضور والإقامة والاستقراركما تدل عليه لفظة حضر ومشتقاتها في العربية

أما دلالة لفظة "الحضارة" في اللغات الأجنبية، واللغة الإنجليزية بخاصة، فمشتقة من اللاتينية، فكلمة "Civilization"لغويًّا ترجع إلى الجذر "civites"بمعنى مدينة، و "Civis"بمعنى ساكن المدينة، أو "civilis" بمعنى مدني.

وتقرن أحيانا بمصطلح "Culture" الذي يفيد معناه اللاتيني الإنماء والحرث، ثم اكتسب مع نهاية القرن الثامن عشر معنى يشير إلى المكاسب العقلية والأدبية والذوقية، ويقابله في العربية مصطلح ثقافة.

فمصطلح الحضارة في اللاتينية واللغات الأجنبية – بعد التطور الذي طرأ عليه بمرور الوقت – يتضمن معنى المدينة، والاستقرار، والتنظيم الذي تقتضيه حياة المدينة، وكأن هناك تشابهًا في الدلالة اللغوية للفظة الحضارة بين العربية واللاتينية.

وأما المعنى الاصطلاحي للحضارة عربيا فوجد بعد تتبعه عند مختلف متناوليه ومعرفيه أنه يختلف باختلاف المشارب الفكرية لصاحب كل تعريف، والإطار الذي يتناول من خلاله تعريفه، وكذلك ثقافته العلمية والمعرفية؛ فهو أي: المعنى الاصطلاحي عند عالم الأناسة (الأنثربولوجي) يختلف عنه عند عالم الاجتماع، وعالم النفس، والمفكر وهكذا.....كلٌّ يعرفه انطلاقًا من منطلقه الفلسفي ومنظوره الفكري. ونتيجة لذلك ظهرت تعريفات متعددة للحضارة.

خلاصتها في الفكر العربي الإسلامي أن الحضارة هي: ما قدمه الإسلام ومن حمله من عرب وعجم أول مرة للمجتمع البشرى من قيم ومبادئ، وقواعد ترفع من شأنه، وتمكنه من التقدم في الجانب المادي وتيسِّر الحياة للإنسان.

وأما الحضارة في التفكير الوضعي عموما فهي: نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي وما يتبع ذلك من مختلف النظم الاقتصادية والسياسية وغيرها.

وقد حدد العلماء والمفكرون والفلاسفة المهتمون بشأن الحضارات على مختلف مشاربهم وتوجهاتهم العناصر التي يجب أخذها في الحسبان عند دراسة أية حضارة،كما توصلوا إلى أن للحضارة أسباب قيام وازدهار وأسباب أفول واندثار وهي التي تتحكم فى منحنياتها صعودا وهبوطا.

فمن أخذ من الأمم والمجتمعات بأسباب النمو الحضاري قامت حضارته وازدهرت ودالت لهم الأيام وانبهجت، وعمرت ديارهم بعد أن نخربت.

ومن غفل من أرباب الحضارات عن أسباب الهلاك الحضاري داسته سنة التداول وأضحت حضارته أثرا بعد عين وتخرب عمرانه وتصدع بنيانه وأفل نجمه وصار مغلوبا بعد أن كان غالبا...وهكذا هي السنن لمن لم يرعها غلابة.

وأما التغيير الحضاري فيعني: التبدل في عناصر الحضارة المادية والمعنوية، أي التبدل في المعارف والأفكار والفنون والمذاهب الدينية والأخلاقية والآلات والماكنات والتكنولوجيا.

هذا فى التفكير الغربي.

أما في التفكير الإسلامي فيعتبر الدين والأخلاق من الثوابت التي لاتقبل التبدل إلا أن يراد بالتغير فيها إعادة ربط الناس بها حين يشردون عنها ويتيهون ويبغون عنها حولا.وهو ما يعني أن التغيير الحضاري هو:ذلكم التحول العميق الناتج عن تفاعل مطرد بين الرسالية كخاصية والمنهج كأداة، ويستهدف القيم والإنسان قبل البنى والوظائف، المستنبط من القانون الإلهي الذي أشار إليه قول الله تعالى: "**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** " الرعد/12

وللتغيير الحضاري مراحل وخطوات منهجية لا بد أن يمر بها ويسلكها حتى يتحقق سالما من كل تشويه وإلا جاء مصابا غير معافى، وهو ما يشكل مديونية حضارية إضافية تثقل كاهل الأجيال من بعد، ويطيل أمد الركود الحضاري ويؤجل الإقلاع الحضاري المأمول والوثبة الحضارية المنشودة.

فالتغيير الحضاري عمل بنائي تراكمي منهجي يرتكز على خطة ذات أهداف إستراتجية ومرحلية،كما يعتمد على وسائل حضارية ذات فاعلية تتناسب وتلك الأهداف والغايات،بالإضافة إلى كفاءات مقتدرة تسهر على التنفيذ الحكيم والمتدرج للخطط المرسومة لكل مرحلة حتى يبلغ البنيان تمامه وتؤتي شجرة التغيير أكلها بإذن الله.

الهوامش

1- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث الإسلامي،قطر، ج1/ص180.

- 2- الفيروزبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط2،1987م باب الراء،فصل الحاء. ص481

3- ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب،بيروت،حرف الحاء، مج 1، ص658

4- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط1،دار الفجر للتراث، القاهرة، 2004، ص450

5- المرجع السابق، ص486

6- نفسه، ص486 .

7- نفسه، ص487 .

8- مالك بن نبي، القضايا الكبرى ط1، 1991دار الفكر،دمشق،،ص43

9- المرجع السابق ص54

10- سيد قطب، معالم على الطريق، دار الشروق، القاهرة،1981، ص60

11- المرجع السابق، ص61

12- طه جابر العلواني،الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت، ط1 ، 2004

13- يوسف القرضاوي،الإسلام حضارة الغد،ط3، المكتب الإسلامي،بيروت،ص09.

14- حسن رمضان فخلة،مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام،دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 1989، ص13.

15-بدران بن الحسن،في مفهوم الحضارة، 2012/06/12http://islamtoday.net

16- طه جابر العلواني،الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت، ط1 ، 2004، ص15بتصرف

17-الطيب برغوث،مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السننبة، دار قرطبة لنشر والتوزيع،الجزائر ط1، 2004، ص17.

18-جودت سعيد،رياح التغيير، دارالفكر المعاصر،بيروت،ط1995،1، ص32

19-أحمد عطيات،الطريق،دار البيارق،، بيروت،ط2،1996،ص53بتصرف بسيط

20- كل ما تحت هذا العنوان مأخوذ من: الهلالي أمحمد المنهج الرسالي في التغيير الحضاري، http://www.alislah.ma، 2012/06/14،بتصرف كبير

21- مستوحى من: جودت سعيد.، حتى يغيروا ما بأنفسهم، دار الفكر المعاصر، ط7، 1993

22- وما بعده: غني ناصر حسين القريشي،مفهوم التغيير الحضاري وطبيعته

2012/06/06،http://www.uobabylon.edu.iq

المراجـع

القرآن الكريم

01 - الفيروزبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط2،1987

02- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث الإسلامي،قطر.

03 - إبن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب،بيروت،حرف الحاء

04- توفيق الواعي،معالم على الطريق،دار ابن حزم،بيروت،ط1،1995

05 - أحمد عطيات،الطريق،دار البيارق،، بيروت،ط2،1996،ص53

06- الطيب برغوث،مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السننبة، دار قرطبة للنشر والتوزيع،الجزائر

07- جودت سعيد.، حتى يغيروا ما بأنفسهم، دار الفكر المعاصر، ط7، 1993

08- حسن رمضان فخلة،مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام،دار الهدى،عين مليلة،الجزائر، ط1،1989

09- سيد قطب، معالم على الطريق، دار الشروق، القاهرة،1981

10- عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط1،دار الفجر للتراث، القاهرة، 2004

11- طه جابر العلواني، الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1 ، 2004

12- مالك بن نبي، القضايا الكبرى ط1، 1991دار الفكر، دمشق

13- مالك بن نبي،شروط النهضة، دار الفكر،الجزائر،ط4،1987

14- يوسف القرضاوي، الإسلام حضارة الغد،ط3، بيروت، المكتب الإسلامي

15- http://www.alislah.ma

16- http://islamtoday.net

17- http://www.uobabylon.edu.iq